قالت العرب

يالللي بتبحث عن إله تعبده.. بحث الغريق عن أي شيء ينجده
الله جميل وعليم ورحمن رحيم.. أحمل صفاته ..
وانت راح توجده
عجبي

المشهد
العدد 344 السنة الرابعة عشرة- الخميس 15 يناير 2026م - 28 رجب 1447هـ

الباحث والمترجم الصيني أنيس وانغ جيا شيوان

الصين.. كيف توازن بين النمو الاقتصادى والهوية الثقافية

رحلة أربعة أشهر تكشف كيف تدير الصين تحولاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بهدوء وثبات

لم تكن الصين التى عرفتها خلال الأشهر الأربعة التى قضيتها على أرضها بلدًا يمكن اختزاله فى عنوان سياسى أو رقم اقتصادى أو صورة نمطية جاهزة، بل كانت تجربة متكاملة، متعددة الطبقات، تفرض على من يعيشها أن يعيد النظر فى كثير من المسلّمات التى اعتاد التعامل معها بوصفها حقائق نهائية.

الصين، كما عايشتها، ليست دولة تسعى إلى إبهار الزائر بقدر ما تسعى إلى إقناعه بقدرتها على الاستمرار، وعلى إدارة التحولات الكبرى بهدوء، وبعقل طويل النفس، وبإيمان راسخ بأن الزمن جزء من أدوات القوة.

منذ اللحظة الأولى فى بكين، يتشكل انطباع مختلف، العاصمة الصينية لا تستقبلك بصخب المدن العالمية ولا ببرود العواصم السياسية التقليدية، بل بشعور عميق بالنظام.

مؤتمر الحوكمة عالية الفعالية في بكين

مدينة الربوتات في مدينة ووشي

النظام اليومى والحوكمة العميقة

كل شيء يبدو محسوبًا، من حركة السير إلى توقيت المترو، من الخدمات العامة إلى تفاصيل التعامل اليومي، فهذا الانضباط لا يُفرض بالقوة الظاهرة، بل ينبع من ثقافة عامة ترى فى الاستقرار قيمة أساسية، وفى التنظيم شرطًا للحياة اليومية.

بكين ليست فقط مركز القرار السياسي، بل تجسيد حى لفلسفة حكم ترى أن الدولة لا تُدار بردّات الفعل، بل بالتخطيط الهادئ.

الاقتصاد الصيني، كما يظهر فى الحياة اليومية، ليس كيانًا مجردًا يُقرأ فى التقارير، بل تجربة معيشة. الاعتماد شبه الكامل على الدفع الإلكتروني، انتشار التطبيقات الذكية فى كل تفاصيل الحياة، سهولة الوصول إلى الخدمات، كلها مؤشرات على اقتصاد متداخل مع المجتمع.

هذا التداخل لا يعنى غياب الدولة، فالدولة لا تُزاحم المواطن فى تفاصيل حياته، لكنها ترسم الإطار الذى يسمح للاقتصاد أن يعمل بسلاسة.

فى هذا السياق، يبرز حضور الرئيس الصينى شى جين بينغ بوصفه المرجعية الفكرية والسياسية للمرحلة. كلماته لا تُستحضر بوصفها شعارات، بل بوصفها عناوين كبرى لمسار طويل.

حديث الرئيس شى عن "التنمية عالية الجودة" يتكرر فى الجامعات، وفى مراكز البحث، وفى الإعلام، وكأنه التعبير المكثف عن انتقال الصين من مرحلة النمو السريع إلى مرحلة أكثر نضجًا، حيث لا يصبح الهدف هو التوسع فقط، بل تحسين النوع، وضمان الاستدامة، وتقليص الفجوات الاجتماعية.

كلمة شى جين بينغ حول الاقتصاد الصيني، التى أكد فيها قدرة البلاد على مواجهة التحديات العالمية، لم تُقرأ فى الداخل باعتبارها مجرد رسالة طمأنة، بل بوصفها إعلان ثقة بالنموذج الصينى نفسه. الصين لا تنكر التحديات، لكنها لا تتعامل معها كأزمات وجودية.

هناك إيمان واضح بأن التخطيط طويل الأمد، والقدرة على التدخل عند الضرورة، يمنحان الدولة هامش أمان واسعًا.

الخطة الخمسية تمثل العمود الفقرى لهذا العقد، لكنها، كما اتضح لى من خلال النقاشات الأكاديمية التى حضرتها فى بكين، ليست وثيقة جامدة، هى إطار عام يحدد الاتجاهات الكبرى، ويترك للمقاطعات هامشًا واسعًا للاجتهاد.

المركز يضع الرؤية، لكن التنفيذ يتم بمرونة، فالتوازن بين المركزية والانفتاح هو أحد أسرار الاستقرار الصيني، الدولة قوية، لكنها ليست متصلبة.

مساحة واسعة للحركة

فى شنغهاي، يتجسد هذا النموذج بوضوح، فالمدينة تبدو كواجهة الصين الاقتصادية للعالم، لكنها فى الوقت نفسه مختبر داخلى للسياسات الجديدة.

الابتكار هنا ليس حكرًا على الشركات الكبرى، بل يمتد إلى الجامعات، ومراكز الأبحاث، والشركات الناشئة. العلاقة بين الدولة والقطاع الخاص ليست علاقة صراع، بل علاقة تنظيم وتكامل.

الدولة تحدد الإطار، وتراقب الاتجاه، لكنها تترك مساحة واسعة للحركة، الانتقال إلى مقاطعات أخرى كشف وجوهًا مختلفة للصين، لكنها جميعًا تتحرك ضمن المسار نفسه.

فى جيانغسو، حيث تتجاور الصناعة الثقيلة مع التكنولوجيا الحديثة، بدا واضحًا أن التنمية لم تعد تُدار بمنطق الإنتاج وحده.

هناك وعى متزايد بأهمية البيئة، وبضرورة تحقيق توازن بين النمو الصناعى وجودة الحياة. هذا التحول لا يأتى من ضغط خارجي، بل من إدراك داخلى بأن الاستدامة شرط للاستمرار.

فى جيانغشي، بدت الصورة أكثر هدوءًا، لكنها لا تقل دلالة. القرى هنا ليست خارج حسابات الدولة، بل جزء من مشروعها. التنمية الريفية لم تعد شعارًا، بل سياسة عملية.

الطرق، التعليم، الخدمات الصحية، وربط المنتجات الزراعية بالأسواق، كلها عناصر تهدف إلى منع تفريغ الريف، والحفاظ على التماسك الاجتماعي، الدولة لا تريد مدنًا مكتظة وأطرافًا مهمشة، بل مجتمعًا متوازنًا.

زيارة مدينة جينغدهتشن، مدينة الخزف، كانت نافذة على علاقة الصين بتراثها، حيث أن الحرف التقليدية لا تُحفظ فى المتاحف فقط، بل تُدمج فى الاقتصاد المعاصر، فالتراث ليس عبئًا، بل موردًا اقتصاديًا وثقافيًا يعزز الهوية ويخلق فرص عمل.

هاينان قدمت نموذجًا مختلفًا للانفتاح، الجزيرة التى تتحول إلى منطقة تجارة حرة لا تفعل ذلك على حساب سيادتها. الانفتاح هنا محسوب، ومدروس، ومربوط بأهداف واضحة.

الصين لا تفتح أبوابها بلا شروط، ولا تنغلق خوفًا من العالم، هى تفاوض من موقع الثقة، وتختبر السياسات قبل تعميمها.

هذا الفهم المتوازن للانفتاح ينعكس بوضوح فى السياسة الخارجية الصينية، فقد كشفت تصريحات وزير الخارجية الصيني، التى تابعتها خلال فترة وجودى فكرة التعددية، وعلى رفض منطق الهيمنة، فالصين لا تسعى إلى فرض نموذجها على الآخرين، لكنها تطالب باحترام خصوصيتها.

التحديث الصينى بين الأصالة والابتكار

اللافت أن هذا الخطاب الخارجى متسق مع الداخل، الحوكمة الصينية تقوم على فكرة الاستقرار أولًا، وعلى إدارة التناقضات بدل تفجيرها، فالدولة لا تدّعى الكمال، لكنها تؤمن بقدرتها على التصحيح الذاتي.

هذا ما لمسناه فى النقاشات الأكاديمية حول التحديث الصيني، حيث يتم الاعتراف بالتحديات دون تهويل أو إنكار.

الإعلام الصيني، الذى غالبًا ما يُقدّم خارجيًا بصورة نمطية، بدا لى أكثر تعقيدًا مما يُصور، صحيح أنه يعمل ضمن إطار سياسى واضح، لكنه يشهد تطورًا مهنيًا وتقنيًا ملحوظًا. التركيز على الإعلام الرقمي، وعلى مخاطبة الخارج بلغاته وثقافاته، يعكس إدراكًا متزايدًا لأهمية السردية فى عالم تنافسي.

تجربة تدريس اللغة العربية فى الصين كانت من أكثر التجارب دلالة على عمق التفاعل الحضاري، العربية هناك ليست لغة هامشية، بل أداة تواصل دبلوماسى وثقافي.

الطلاب الذين يدرسونها يفعلون ذلك ضمن رؤية ترى فى العالم العربى شريكًا استراتيجيًا. هذا الاستثمار فى اللغة يعكس فهمًا عميقًا لقوة الثقافة فى العلاقات الدولية.

حياة يومية

فى الحياة اليومية، كانت بكين تقدم دروسها الخاصة النظام فى وسائل النقل، الانتشار الواسع للدراجات الكهربائية، الاعتماد شبه الكامل على التكنولوجيا، كلها تفاصيل تعكس كيف يمكن للسياسات العامة أن تغيّر السلوك الاجتماعى دون صدام، التحول البيئي، على سبيل المثال، لا يُفرض بالقوة، بل يُشجّع بالحوافز.

ما يلفت فى التجربة الصينية هو غياب العجلة، حيث أن الدولة لا تعمل بمنطق الدورات القصيرة، بل بمنطق الأجيال، والتخطيط طويل الأمد يمنح السياسات فرصة للنضج، ويمنح المجتمع شعورًا بالأمان والاستقرار.

الصين لا تبحث عن نتائج فورية تُرضى الرأى العام الآني، ولا تُدار بمنطق الانتخابات الدورية أو المزاج الإعلامى المتقلب، بل بمنطق الدولة التى ترى نفسها مشروعًا تاريخيًا ممتدًا.

هذا الإدراك ينعكس على طريقة التعامل مع الأزمات، سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو حتى صحية، حيث يتم احتواؤها ضمن الإطار العام للاستقرار، لا تحويلها إلى صراعات مفتوحة.

فى بكين، بدا واضحًا أن مفهوم الحوكمة لا يُختزل فى الهياكل الإدارية، بل يتجاوزها إلى منظومة قيم وسلوكيات.

العلاقة بين المواطن والدولة تقوم على تبادل غير معلن، الدولة توفر الخدمات، البنية التحتية، وفرص العمل، مقابل التزام عام بالنظام واحترام القواعد.

حين تعمل الخدمات بكفاءة، وحين يشعر المواطن بأن الدولة تخطط للمستقبل لا للحظة، يصبح الالتزام نتيجة طبيعية.

هذا ما يجعل الخطة الخمسية أكثر من مجرد وثيقة اقتصادية، هى فى جوهرها أداة حوكمة، تحدد أولويات المجتمع، وتعيد توجيه الموارد، وتضبط إيقاع التنمية.

خلال المحاضرات التى حضرتها، كان يتم التأكيد على أن الخطة الخمسية ليست نهاية الطريق، بل مرحلة ضمن مسار أطول يمتد لعقود. التركيز الحالى على الابتكار، والاقتصاد الأخضر، والتكنولوجيا المتقدمة، يعكس إدراكًا بأن الصين لم تعد تستطيع الاعتماد فقط على التصنيع التقليدى أو العمالة الرخيصة.

فى هذا الإطار، يصبح حديث الرئيس شى جين بينغ عن "التحديث الصينى النمط" أكثر وضوحًا، فالصين لا تسعى إلى استنساخ النموذج الغربي، ولا ترى نفسها مضطرة لتبرير خياراتها وفق معايير خارجية.

التحديث هنا ليس قطيعة مع الماضي، بل إعادة توظيف له، القيم الكونفوشية المتعلقة بالانسجام، والاعتدال، واحترام الجماعة، تجد صداها فى السياسات المعاصرة، سواء فى التخطيط الحضرى أو فى إدارة التنوع الاجتماعي.

كلمة شى جين بينغ حول التوازن بين النمو الكمى والنوعى لم تكن خطابًا موجهًا للخارج فقط، بل رسالة داخلية تؤكد أن المرحلة المقبلة تتطلب دقة أكبر فى الإدارة. التحديات الاقتصادية، من تباطؤ الاستهلاك إلى أزمة العقارات، لا تُخفى عن النقاش العام، لكنها تُوضع ضمن سياق أوسع.

التحديات موجودة والقلق غائب

الدولة تعترف بالتحديات، لكنها لا تسمح لها بأن تتحول إلى مصدر قلق وجودي. هنا يظهر الفارق بين إدارة الأزمة وإدارة الخوف.

دور وزير الخارجية الصينى فى هذا السياق يبدو امتدادًا طبيعيًا للفلسفة الداخلية، الخطاب الدبلوماسى الصيني، كما تابعته خلال القمم والبيانات الرسمية، يقوم على فكرة الشراكة المتكافئة، ورفض الإملاءات، والدعوة إلى نظام دولى أكثر توازنًا.

هذا الخطاب ليس مجرد موقف سياسي، بل انعكاس لفهم صينى عميق لمسألة السيادة، التى لا تُختزل فى الحدود، بل تشمل الحق فى اختيار النموذج التنموي.

من المركز إلى المقاطعات

اليوميات الصينية لم تكن محصورة فى القاعات الرسمية أو المحاضرات الأكاديمية، فالشارع نفسه كان درسًا مفتوحًا. فى الأسواق، فى المترو، فى الحدائق العامة، ترى كيف يندمج الاقتصاد مع الحياة اليومية.

الهوت بوت أشهر الأكلات في الصين

كبار السن يستخدمون التطبيقات الذكية، والشباب يتعاملون مع التكنولوجيا بوصفها أمرًا بديهيًا، هذا الانتشار الواسع للتكنولوجيا لم يأتِ صدفة، بل نتيجة سياسات تعليمية واستثمارية طويلة الأمد.

فى مقاطعة شنغهاي، العاصمة الاقتصادية للصين، شعرت بقوة الإيقاع الصناعى والتجاري، الأبنية الشاهقة والموانئ الحديثة ليست مجرد رموز للتقدم، بل أدوات عملية لإدارة الاقتصاد العملاق للصين

يتحرك الابتكار جنبًا إلى جنب مع الإنتاج الضخم، والتكنولوجيا الرقمية لا تُستخدم فقط لتحسين الخدمات، بل لتوجيه السوق وإدارة الطلب.

فى مدينة ووشي، المدينة التى تركت أثرًا خاصًا فى ذاكرتي، كان التوازن بين الطبيعة والتخطيط الحضرى مثالًا حيًا على فلسفة التنمية الصينية، البحيرات، المساحات الخضراء، والنظام العمرانى المتناسق، كلها تعكس فهمًا عميقًا بأن التحديث لا يعنى تشويه المكان.

التنمية هنا لا تُقاس فقط بعدد المصانع أو حجم الاستثمارات، بل بجودة الحياة، هذا البعد الإنسانى فى التخطيط لا يظهر كثيرًا فى الأرقام، لكنه حاضر بقوة فى التجربة.

أما فى مقاطعة جيانغشي، فقد كانت القرى شهادة حية على أن التحديث الصينى لا يترك الأطراف خلفه، التنمية الريفية ليست برنامجًا دعائيًا، بل سياسة متكاملة.

القرى التى رأيتها لم تفقد هويتها، لكنها لم تبقَ أسيرة الماضي، الطرق الحديثة، المدارس، وربط الإنتاج المحلى بالأسواق، كلها عناصر تتيح للريف أن يكون جزءًا فاعلًا من الاقتصاد الوطني.

زيارة مدينة جينغدهتشن، عاصمة الخزف، كانت تجربة ثقافية وفنية فريدة، جمعت بين التراث العريق والإبداع المعاصر، المتاحف والمعارض، والمصانع التى حافظت على طرق الإنتاج التقليدية جنبًا إلى جنب مع التكنولوجيا الحديثة، أظهرت كيف يمكن للتحديث أن يحترم الأصالة.

تجربة صناعة الخزف بنفسنا، تحت إشراف الحرفيين، أضافت بعدًا شخصيًا للتعرف على الثقافة الصينية، وأكدت أن التحديث الصينى ليس مجرد صناعة وبنية تحتية، بل يشمل الثقافة والفن والهوية.

هاينان بوابة الصين للعالم

أما فى مقاطعة هاينان، فقد كان الانفتاح الاقتصادى هو العنوان البارز للتجربة. جزيرة هاينان، التى تُعد نموذجًا للبوابة الاستراتيجية للصين نحو العالم، تعكس رؤية بكين فى التوازن بين السوق المفتوح والسيادة الوطنية. ميناء التجارة الحرة، الذى أطلق عملياته رسميًا، لم يكن مجرد تطوير اقتصادي، بل مشروع متكامل يربط بين الاقتصاد المحلى والعالمي، ويخلق فرصًا استثمارية هائلة، تطبيق القوانين الجمركية المرنة، الإعفاءات الضريبية، وتسهيلات السفر، جعل من الجزيرة نموذجًا يُحتذى به فى العولمة الاقتصادية المنظمة، ويؤكد على قدرة الصين على الانفتاح بطريقة مدروسة، لا تهدد الاستقرار الداخلى ولا تفرط فى السيادة.

الدكتورة وي تشي رونغ، أستاذة بجامعة الدراسات الدولية ببكين

المحاضرات التى حضرتها خلال البرنامج لم تكن مجرد نقل معلومات، بل محاولة لصياغة سردية متكاملة عن الصين، محاضرة تعليم اللغة العربية، على سبيل المثال، كشفت كيف ترى الصين فى اللغة أداة استراتيجية. العربية ليست مجرد تخصص أكاديمي، بل جسر للتواصل مع عالم عربى تراه بكين شريكًا أساسيًا فى المستقبل، الاستثمار فى تعليم العربية، وفى إعداد كوادر متخصصة، يعكس رؤية بعيدة المدى للعلاقات الثقافية والدبلوماسية.

محاضرة "جوهر التحديث الصيني" أعادت ربط الحاضر بالماضي، التاريخ لم يُقدّم بوصفهw سردًا متحفيًا، بل كجزء حى من الوعى السياسى المعاصر، من كونفوشيوس إلى طريق الحرير، ومن أسرة تشين إلى الإصلاح والانفتاح، كان هناك خيط واضح يربط بين المراحل. الصين لا ترى تناقضًا بين الأصالة والحداثة، بل تعتبرهما شرطين متكاملين.

الإعلام الصيني، كما عرضه الباحث أنيس وانغ، بدا أكثر تعقيدًا من الصورة الشائعة. الهيكل المؤسسي، تطور الصحافة، التحول الرقمي، كلها مؤشرات على نظام إعلامى يسعى إلى التحديث دون التفريط فى دوره السياسي.

الإعلام ليس سلطة رابعة مستقلة بالمعنى الغربي، لكنه ليس مجرد أداة دعاية أيضًا، هو جزء من منظومة الحوكمة، يوازن بين نقل المعلومات والحفاظ على الاستقرار.

كما أن التنوع الثقافى للمشاركين فى البرنامج أضاف بعدًا إنسانيًا للتجربة، وجود صحفيين من دول مختلفة، بخلفيات ثقافية وسياسية متباينة، خلق مساحة للنقاش والمقارنة.ا

الصين، فى هذا السياق، لم تكن موضوعًا للنقاش فقط، بل إطارًا جامعًا لهذا التنوع. القدرة على استضافة هذا العدد من الثقافات، المختلفة، وإدارة الحوار بينها، تعكس ثقة بالنفس، ورغبة فى الانفتاح المنضبط.

ومن بين التفاصيل اليومية التى اكتشفتها، كان التنقل فى المدن الكبرى تجربة تعكس مزيجًا بين التكنولوجيا والحياة الاجتماعية، بكين، التى تعج بالمشاة والسيارات والدراجات الكهربائية، لم تعد مجرد عاصمة سياسية، بل مختبر حى لتجربة حضرية جديدة.

الحياة اليومية والثقافة

الدراجات الكهربائية التى انتشرت فى كل شارع، والتى يستخدمها رجال ونساء وشباب، ليست مجرد وسيلة نقل، بل رمز لتحول اجتماعى واقتصادي، حيث تجمع بين الاقتصاد الشخصي، والوعى البيئي، والمرونة فى الحركة.

المشهد الصباحي، حين تتجه النساء العاملات إلى أعمالهن على هذه الدراجات، يعكس استقلالية متزايدة، وإدراكًا واسعًا بأن التحديث الصينى يشمل جميع فئات المجتمع، وأن التنمية ليست حكرًا على المدن الكبرى أو على الرجال وحدهم، بل تجربة مشتركة.

الأسواق، التى تبدو مزدحمة وعشوائية للوهلة الأولى، تخضع لنظام دقيق يحافظ على توازن الإنتاج والاستهلاك، ويرسخ ثقافة الابتكار فى حياة المواطنين اليومية.

هذا التوازن بين النمو الاقتصادى المستدام والرفاه الاجتماعى هو ما يميز تجربة الصين عن الكثير من الاقتصادات الأخرى، حيث يُنظر إلى الاقتصاد ليس فقط كأداة لجنى الأرباح، بل كأداة لتثبيت الاستقرار المجتمعى وتعزيز جودة الحياة.

أما الجانب الأكاديمي، فقد كان محورًا أساسيًا فى الرحلة. المحاضرات التى حضرتها فى بكين حول التحديث الصيني، والخطة الخمسية، والتعليم، والإعلام، أضافت بعدًا معرفيًا للتجربة.

محاضرة تعليم اللغة العربية أوضحت أن الصين تراهن على اللغة والثقافة كأدوات استراتيجية لتعميق علاقاتها بالعالم العربي، وهو ما يعكس رؤية بعيدة المدى للتبادل الثقافى والدبلوماسي.

محاضرة "جوهر التحديث الصيني" ربطت الماضى بالحاضر، وأوضحت أن القيم التقليدية مثل الانسجام والوسطية، ما زالت تشكل قاعدة لتطوير السياسات الحديثة، وأن التحديث ليس رفضًا للماضي، بل توظيفه بطريقة تحقق النمو والازدهار المستدام.

الإعلام الصيني، كما عرضت محاضرة أنيس وانغ، أظهر توازنًا بين التطوير الرقمى والوظيفة الاجتماعية والسياسية.

المؤسسات الإعلامية الكبيرة مثل وكالة شينخوا، وCCTV، ومجموعات الصحف والمجلات المتخصصة، تعمل ضمن إطار يخدم المشروع الوطني، دون أن يغيب عنها عنصر الاحترافية.

الإعلام ليس مجرد أداة دعائية، بل جزء من الحوكمة، يسعى لتحقيق الشفافية وإيصال المعلومات مع الحفاظ على الاستقرار الاجتماعي.

التفاعل مع المشاركين الآخرين من مختلف دول العالم أتاح لى رؤية الصين من منظور عالمي، الحوار مع الصحفيين الأوروبيين والأمريكيين والأفارقة أظهر أن التجربة الصينية ليست مجرد نموذج محلي، بل مشروع يفتح المجال للتبادل الثقافى والمعرفى على نطاق عالمي.

الصين، بهذا النهج، تؤكد أنها لا تسعى لفرض نموذجها، لكنها تقدم بدائل واضحة وفعالة لمن يرغب فى التعلم والتعاون.

ما خرجت به من هذه التجربة هو أن الصين لا يمكن فهمها من زاوية واحدة، هى ليست نموذجًا مثاليًا، لكنها ليست الصورة الكاريكاتورية التى تُقدم أحيانًا فى الإعلام الدولي، هى دولة تبحث عن طريقها الخاص، وتدرك أن هذا الطريق لن يكون مقبولًا للجميع. لكنها لا تبدو معنية بإرضاء الخارج بقدر ما هى معنية بتحقيق توازن داخلى يسمح لها بالاستمرار.

دولة تفكر قبل أن تتحرك

ربما لا يمكن اختزال أربعة أشهر فى نص واحد، لكن ما يمكن قوله بثقة هو أن الصين، كما رأيتها، دولة تفكر كثيرًا قبل أن تتحرك، وتتحرك بثبات حين تقرر، لا تطلب من العالم أن يقلدها، لكنها تطالب بعقه فى أن يفهمها كما هي. ومن موقع الصحفى الذى عاش التجربة لا الذى راقبها من بعيد، أستطيع القول إن الصين تُقرأ أفضل حين تُعاش، وتُفهم أعمق حين تُرى من الداخل، بعيدًا عن العناوين الجاهزة والأحكام المسبقة.

ما يربط كل هذه التجارب اليومية والأكاديمية والثقافية هو فهم الصين للزمن والاستراتيجية، الدولة لا تتحرك بعشوائية، ولا تعمل على أساس النتائج الفورية فقط، بل تضع الخطط طويلة المدى، وتراقب تنفيذها بدقة، وتعدل السياسات بما يتناسب مع الواقع.

الرئيس شى جين بينغ ووزير الخارجية الصينى ليسا مجرد رموز، بل جزء من منظومة حوكمة متكاملة تحدد الإيقاع، وتربط بين السياسة الداخلية والخارجية، وتضمن أن التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تسير فى مسار متوازن.

الرحلة التى استمرت أربعة أشهر لم تكن مجرد زيارة مهنية، بل تجربة عميقة فى فهم الصين من الداخل، من بكين إلى شنغهاي، ومن ووشى إلى جيانغشى وهاينان وجينغدهتشن، كل لحظة كانت درسًا فى الاقتصاد، والسياسة، والثقافة، والحياة اليومية.

كل محاضرة، وكل سوق، وكل شارع، وكل لقاء، كان بمثابة قطعة من لوحة كبيرة تُظهر كيف يُدار بلد بحجم الصين، وكيف يوازن بين الماضى والحاضر، بين الاستقرار والابتكار، بين الاقتصاد والتنمية البشرية.

ما خرجتُ به هو إدراك أن الصين لا يمكن اختزالها فى خبر أو تقرير واحد، وأن تجربتها فى الحوكمة، والخطة الخمسية، والانفتاح الاقتصادي، والتعليم، والإعلام، والفنون، تعكس نموذجًا فريدًا للتنمية المستدامة.

الصين تقدم درسًا عمليًا فى صبر الدولة، ودقة التخطيط، وقدرة المجتمع على التكيف مع التحديث، مع الحفاظ على هويته وثقافته، وهذا ما يجعل أى زيارة لها تجربة تتجاوز حدود الجغرافيا والزمن، لتصبح فهمًا عميقًا لمسار دولة اختارت طريقها الخاص نحو المستقبل، بوعى كامل بتاريخها، وثقة كبيرة فى قدراتها، ورؤية واضحة لمكانتها فى العالم.

أميرة الشريف